كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

# أنساق

ANSAQ

مجلة دولية علمية محكمة - يصدرها قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم - جامعة قطر

International Scientific Journal issued by The Department of Arabic Language, College of Arts and Sciences - Qatar University

ON LINE-ISSN: **2520-7148** PRINT-ISSN: **2520-713X**

المجلد 2 العدد 1 فبراير 2018

كلية الآداب والعلوم
College of Arts and Sciences
QATAR UNIVERSITY جامعة قطر

# أنساق

ANSAQ

مجلة علمية دولية محكمة

تصدر عن قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر

المجلد الثاني

العدد الأول - فبراير 2018م

المجلد الثاني، العدد الأول
فبراير 2018م
لوحة غلاف العدد «الغروب» للفنان القطري حسن الملا
شعار اسم أنساق بخط: إبراهيم أبو طوق

## للمراسلات

قطر – الدوحة، ص ب 2713 جامعة قطر. كلية الآداب والعلوم – قسم اللغة العربية – مجلة أنساق
المراسلات باسم رئيس التحرير

البريد الإلكتروني للمجلة: ansaq@qu.edu.qa

الموقع الإلكتروني للمجلة: www.qu.edu.qa/ansaq

الترقيم الدولي الإلكتروني: Online-ISSN:2520-7148

الرقم الدولي: Print-ISSN:2520-713X

هاتف رقم: 974-4403-6441 + 974-4403-4823 +

فاكس رقم: 974-4403-4501 +

رقم الإيداع: 445/2016

مجلة علمية دولية محكمة
تصدر عن قسم اللغة العربية - كلية الآداب والعلوم بجامعة قطر

❁ الإشراف العام ❁
الدكتور راشد أحمد الكواري
عميد كلية الآداب والعلوم

❁ المدير العام ❁
الدكتورة مريم النعيمي
رئيس قسم اللغة العربية

❁ رئيس التحرير ❁
أ.د. عبد القادر فيدوح

❁ مدير التحرير ❁
د. أحمد حاجي صفر

❁ الهيئة الاستشارية ❁
حمد بن عبد العزيز الكوّاري (قطر)
سعيد يقطين (المغرب)
شكري المبخوت (تونس)
عبد العزيز عبد الله تركي السبيعي (قطر)
عبد الله العشي (الجزائر)
عقيل مرعي (إيطاليا)
علي الكبيسي (قطر)
فاضل عبود التميمي (العراق)
مصطفى قرقز (تركيا)
هادي حسن حمودي (بريطانيا)
Eric Gautier (France)
Luc Deheuvels (France)

❁ الهيئة العلمية ❁
حافظ إسماعيلي علوي
حبيب بوهرور
رشيد بوزيان
عبد السلام حامد
مبارك حنون
محمود الجاسم
مراد مبروك
مصطفى بوعناني

❁ هيئة التحرير ❁
امتنان الصمادي
رامي أبو شهاب
رضوان المنيسي
عبد الله الهيتاري
عماد عبد اللطيف
عمرو محمد فرج مدكور
محروس بريك
محمد مصطفى سليم
هيا محمد الدرهم
علي فتح الله
لولوة حسن العبد الله

# قواعد النشر في المجلة

1. تنشر المجلة البحوث العلمية الرصينة باللغة العربية في حقل الآداب والعلوم الإنسانية.
2. تخضع البحوث المنشورة للتحكيم على نحو سري.
3. يجب ألّا يقل عدد كلمات البحث عن 4000 كلمة، ولا يزيد عن 8000 كلمة.
4. ترسل البحوث باسم رئيس التحرير على البريد الإلكتروني للمجلة.
5. أن تتضمن الصفحة الأولى من البحث:
   - عنوان البحث باللغة العربية،
   - اسم الباحث باللغة بالعربية،
   - اسم الجامعة،
   - البريد الإلكتروني،
   - ملخص البحث باللغة العربية (فقرة لا تقل عن عشرة أسطر، ولا تزيد على عشرين سطرا).
   - الكلمات المفاتيح (لا تزيد عن سبع كلمات)
6. أن تتضمن الصفحة الثانية من البحث:
   - عنوان البحث باللغة الإنجليزية،
   - اسم الباحث بالحرف اللاتيني،
   - اسم الجامعة بالحرف اللاتيني،
   - البريد الإلكتروني،
   - ملخص البحث باللغة الإنجليزية (في فقرة لا تقل عن عشرة أسطر، ولا تزيد على عشرين سطرا).
   - الكلمات المفاتيح باللغة الإنجليزية (لا تزيد عن سبع كلمات)
7. توضع الهوامش في أسفل كل صفحة، وتكون مربوطة بشكل آلي بالمتن. كما يبدأ ترقيم الهوامش عند بداية كل صفحة جديدة.
8. إذا تكرر ذكر المرجع في الصفحة نفسها، يشار إليها بـ "المرجع نفسه".
9. توثق الإحالات على النحو الآتي: يذكر اسم المؤلف العائلي فالشخصي، ثم عنوان الكتاب أو المقال، ورقم الصفحة. (على أن يوثق المرجع بشكل كامل في لائحة المصادر والمراجع ويكون ذلك على النحو الآتي: اسم المؤلف، عنوان الكتاب أو المقال، الجزء/ أو العدد، الطبعة، مكان الطبع، تاريخ الطبع).
10. أي بحث لا تتوفر فيه الشروط الشكلية المذكورة يستبعد تلقائيا دون النظر في محتواه.

# فهرس أنساق

## استهلال أنساق


| | | |
|---|---|---|
| نحو صناعة معرفية ثقيلة | سعد مصلوح | 11 |


## متون أنساق


| | | |
|---|---|---|
| التخييل المخاتل، من فقر الثيمة إلى تجريب شعرية السرد الغرائبي، دراسة بعض مظاهر الحداثة في الرواية العربية المعاصرة. | محمد مصطفى سليم | 15 |
| العلاماتية، وتكوين البناء السردي في رواية «مطر حزيران» للروائي اللبناني جَبّور الدويهي. | حسني مليطات | 39 |
| تمثلات الكولونيالية الجديدة في رواية «2084 حكاية العربي الأخير» . | عبد القادر فيدوح | 51 |
| استراتيجيّات الاعتبار في السيرة الذاتيّة «كتاب الاعتبار» لابن منقذ أنموذجا. | يسرى التمراوي | 69 |


## قراءة أنساق


| | | |
|---|---|---|
| إشكالية المعنى في ضوء النظرية السّياقية. | حبيب بوزوادة | 83 |
| قراءة النص الأدبي. المعنى وآلية الفعل. | عبد الكريم محمد حسين | 97 |
| شعرية المصطلح الصوفي من بنية التآلف إلى بنية التضاد. | أحمد بوزيان | 115 |


## دلالات أنساق


| | | |
|---|---|---|
| دروس في اللسانيات العامة لدو سوسير (نشرة 1916) قراءة نقدية في ضوء المصادر الأصول. | مصطفى غلفان | 135 |
| الأُرْجُومة، خصائص العبارة الأخيرة في النصّ الحجَاجيّ وأنواعُها (دراسة في ضوء الأسلوبيَّة التداوليَّة). | سالم عبد الرب السلفي | 157 |
| بعض توجّهات البحث التطبيقي في اللسانيات التوليدية. | محمد بلبول | 175 |

# قراءة أنساق

# إشكالية المعنى في ضوء النظرية السّياقية

د.حبيب بوزوادة
جامعة معسكر - الجزائر
habibbouzouada@gmail.com

**ملخص البحث :**

يعتبر المعنى من القضايا الأكثر أهمية في الكلام البشري، فهو الهدف المقصود من أيّ نظام لغويّ، أمّا المستويات اللسانية الأخرى (الصوتية والصرفية والتركيبية) فهي حاملة للمعنى، ووسيلة أساسية من وسائل التبليغ، ونظراً لطبيعة المعنى التي تمتاز بالغموض والتغيّر والتبدّل، كانت الحاجة ماسّة لدراسة هذا المكوّن المهمّ من مكوّنات اللسان البشريّ؛ فظهر بسبب ذلك علم الدّلالة، الذي ناقش قضايا المعنى بشبكة من الآليات المعرفية التي سمحت بالحفر في المعنى والوصول إلى نتائج أكثر دقّة وموضوعية.

ونظراً لحيوية (المعنى)، تجاذبته حقول معرفية أخرى، كالسيميائية والتداولية وغيرهما، غير أنّ هذه المجالات المعرفية اتّفقت على اعتبار السياق الوسيلة المفضّلة للكشف عن الدّلالات الخفية في الخطاب البشريّ، حتى وإن كان الحديث عنه تحت أسماء أخرى، كالمقام، والموقف، والقرينة، والمؤشّر.. لكنّها جميعاً تشير إلى أهميّة ظروف التخاطب في صياغة الخطاب، وفهم معانيه وكشف دلالاته.

وسأحاول في ورقتي أن أسلّط الضوء على السياق ضمن ثلاثة مقاربات؛ المقاربة التراثية، التي تستلهم من جهود اللغويين العرب، وعلماء أصول الفقه، ومقاربة علماء اللسانيات (نظرية فيرث السياقية)، والمقاربة التداولية التي أعطت أهمية أكبر لقضايا السياق ضمن بنية الخطاب وآلية استكشافه.

**الكلمات المفاتيح :**

المعنى، الدّلالة، اللسانيات، السياق، النظرية السياقية، التداولية

# The question of meaning within the contextual theory

Dr.Habib Bouzouada
Mascara University-Alegria
habibbouzouada@gmail.com

## Abstract :

Meaning is a main issue in human speech. It is the intended purpose of any linguistic system; meanwhile the other linguistic levels (phonetic, morphological and syntactic ones) are bearings of meaning, and a basic means of communication. Because of the ambiguous and changing nature of meaning, there was a strong need to study this important component of the human tongue, and that have leaded to the emergence of Semantics, which has discussed the issues of meaning with a set of cognitive mechanisms that allowed searching in meaning and reach more accurate and objective results.

Because of the vitality of the (meaning), it has been attracted by other disciplines , such as semiotics, pragmatics etc… . However, these cognitive fields have agreed on considering the context as the best means to discover the connotations in the human discourse, even if it is named differently as situation, position, proof, index ect .. But they all indicate the importance of the conditions of communication in the framing a speech , and understanding of the its meaning and significance.

In this paper is an attempt to highlight the context within three approaches: the traditional one which inspired the efforts of the old Arab linguists, and scholars of Islamic Principles of jurisprudence. Then the linguistic approach especially the Firth approach, and finally the pragmatic approach which interested strongly in the context issues in framing and analyzing discourse .

## Key words :

Meaning- significance - Linguistics- Context- Contextual Theory- Pragmatics

## تمهيد:

يعتبر المعنى (Meaning) جوهر عملية التخاطب، فهو الحقيقة التي يهدف المتكلّمون إلى إبلاغها، ويهدف المخاطَبون لاستيعابها وفهمها، ومع ذلك فإنّ الاهتمام به لم يكن كبيراً في الدّراسات اللغوية القديمة، فقد ظلّت الأولوية للبنية الشكلية للخطاب اللغوي على حساب بنيته الدّلالية، فشهدت الحضارات القديمة اهتماماً بالجوانب الصوتية للكلمة، وبصيغها الصرفية، أو بالجوانب التركيبية للكلام، أمّا الحديث عن المعنى فقد كان يأتي بالتبعية في الاختصاصات المختلفة، كتفسير نصوص الدّين، أو الفلسفة ونحوهما.

غير أنّ العالم اللغوي الفرنسي ميشال بريال (M.Bréal) أطلق سنة 1883م دعوة للاهتمام بالجوانب الدّلالية للخطاب اللغوي، وأعلن من خلال كتابه (Essai de Sémantique) عن تأسيس علم الدّلالة (Semantic)، بغرض البحث في ماهية المعنى، وآليات تشكّله، وطرق تحوّله، قائلا: «إنّ الدراسة التي ندعو إليها القارئ هي من نوعٍ حديث للغاية بحيث لم تسمّ بعد، نعم لقد اهتمّ معظم اللسانيين بجسم وشكل الكلمات، وما انتبهوا قطّ إلى القوانين التي تنتظم تغير المعاني، وانتقاء العبارات الجديدة والوقوف على تاريخ ميلادها ووفاتها، وبما أن هذه الدّراسة تستحق اسماً خاصاً بها، فإنّنا نطلق عليها اسم (Semantic) للدلالة على علم المعاني»[1]، وبرغم أهمية ما دعا إليه بريال إلاّ انه لم يلق الصدى والترحيب المطلوبين، فقد تأخّر ذيوع أفكاره إلى سنة 1923م عندما أصدر عالما اللغة الإنجليزيين (أوجدن وريتشاردز) كتابهما معنى المعنى (The Meaning of Meaning).

(1) Le Roy Maurice: les grands courants de la linguistique modern p46 نقلا عن عبد الجليل منقور: علم الدّلالة أصوله ومباحثه ص20

وبذيوع محاضرات فرديناند دوسوسير (De Saussure) في القرن العشرين جرى إعادة ترتيب علوم اللغة، فتمّت صياغة قواعد المعرفة اللغوية تحت مصطلح اللسانيات (Linguistic)، وأصبح علم الدّلالة هو المستوى الرابع من مستويات هذا العلم الوليد، بالإضافة إلى المستوى الصوتي، والمستوى الصرفي، والمستوى التركيبي.

## هل المعنى مشكلة؟

يعتبر المعنى من المفاهيم الزئبقية، فهو غير قابل للتكميم، ولا يمكن القبض عليه، ولا قياسه، أو تثبيته، إنّه سريع التفلّت، فما يزال النّاس مختلفين في مستويات إدراكه، وطرق الوصول إليه، وآليات إنتاجه، ومن هنا تأتي حيوية هذا المفهوم، فمن هذه الدينامية تولّد الاختلاف، ومن الاختلاف انبثقت الرؤى والأفكار، وتشكّلت الفلسفات والعلوم.

لقد فكّك محمد مفتاح مفهوم المعنى، وحاول أن يحصي مستوياته، انطلاقاً من معطيات السيميائيات مستعيناً باجتهادات علماء الأصول، فوجد بأنّ المعنى طبقات، كطبقات القشرة الأرضية، لكلّ طبقة ميزات وخصائص محدّدة، وهذه المستويات تقع بين قطبين أساسيين وهما منتهى الوضوح ومنتهى الغموض، وعليه تحدّث عن إمكانية تصنيف النّصوص تبعاً لدرجة قربها أو بعدها عن هذين القطبين، فقال: «يخطئ من يسلّم بأنّ اللغة شفّافة، وكذلك يخطئ من يعتبر أنّ اللغة عَمَاء وأنّ الخطاب حجاب، وتجنّباً للأخذ بأحد الطّرفين دون سواه، فإنّنا نقترح درجات للدّليل من حيث طبيعة معناه»[2]. وتبعاً لهذا التوجيه تحدّث مفتاح عن الدّرجات التالية من النّصوص، وهي: النّص الواضح، النّص البيّن، النّص الظاهر، النّص المحتمل، النّص الممكن، النّص العميّ[3].

(2) محمد مفتاح: المفاهيم معالم ص147.
(3) انظر شرح هذه المصطلحات في المرجع السابق ص- 147 148

أمّا في الثقافة العربية القديمة فإنّ العلاقة بين اللفظ والمعنى كانت دائماً إشكالية، حصرها علماء المنطق في خمس علاقات، كما نبّه على ذلك الأخضريّ في منظومة السلّم المرونق[1]:

وَنِسْبَـةُ الألْفَـاظِ لِلْمَعَـانِـي
خَمْسَـةُ أقْسَـامٍ بـلا نُقْصَـانِ
تَـوَاطُـؤٌ تَشَاكُـكٌ تَخَـالُـفُ
وَالاشْتِـرَاكُ عَكْسُـهُ التّـرَادُفُ

فالمفردة قد تدلّ على معناها بصورة مباشرة تشمل كلّ أفراده، وهي التواطؤ، كدلالة «الإنسان» على زيد وعمرو وبكر، أو تدلّ على معنى يتفاوت الأفراد في الاتصاف به، كدلالة «الضوء» التي تتفاوت بين (الشمس، والقمر، والسّراج)، وهو التشاكك، أمّا الاشتراك فاتحاد اللفظ واختلاف المعنى، كدلالة «العين» على العين الباصرة، وعين الماء، وغيرهما. والتّرادف هو دلالة اللفظين على المعنى الواحد، ويراد بالتخالف اختلاف الألفاظ لاختلاف المعاني، وهو أكثر مفردات اللغة.

كما تحدّث المناطقة عن دلالات المطابقة والتضمن والالتزام، باعتبارها الأشكال الضابطة لعلاقة اللفظ مع معناه، لأنّ الكلمة قد تدلّ على تمام المعنى (المطابقة)، أو على بعضه (التضمّن)، أو على معنى مصاحب له عقلاً أو عرفاً كدّلالة الحاجب على العين (الالتزام)[2].

ويحصر اللغويون العلاقات النّاظمة بين الكلمات ومعانيها ضمن ثلاثة أطر، وهي التباين، والاشتراك، والترادف، قال أحمد مختار عمر: «ألفاظ اللغة من حيث دلالاتها ثلاثة أنواع:

أ-المتباين: وهو أكثر اللغة، وذلك أن يدلّ اللفظ الواحد على معنى واحد.

ب-المشترك اللفظي: وهو أن يدلّ اللفظ الواحد على أكثر من معنى.

ج-المترادف: وهو أن يدلّ أكثر من لفظ على معنى واحد»[3].

أمّا علماء أصول الفقه فقد امتازت نظرتهم إلى المعنى بالكثير من الحيوية والدّقة، فهم يتحدّثون عن قطبين أساسيين وهما (المحكم والمتشابه) اللذان يمثلان منتهى البيان، ومنتهى الغموض، قال السّيوطي: «المحكم لا تتوقف معرفته على البيان، والمتشابه لا يرجى بيانه»[4]، وبين هذين القطبين هناك مستويات أخرى من المعاني متدرّجة في درجة وضوحها وبيانها، قال الشريف التلمساني: «اعلم أنّ اللفظ إمّا أن يحتمل معنيين، أو لا يحتمل إلاّ معنى واحداً، فإن لم يحتمل بالوضع إلاّ معنى واحدا فهو (النّص)، وإن احتمل معنيين؛ فإمّا أن يكون راجحا في أحد المعنيين، أو لا يكون راجحا، فإن لم يكن راجحاً في أحد المعنيين فهو (المجمل)، وهو غير المتضح الدّلالة. وإن كان راجحاً في أحد المعنيين؛ فإمّا أن يكون رجحانه من جهة اللفظ، أو من جهة دليل منفصل، فإذا كان من جهة اللفظ فهو (الظّاهر)، وإن كان من جهة دليل منفصل فهو (المؤوّل)، فخرج من هذا أنّ اللفظ إمّا نصٌّ، وإمّا مجملٌ، وإمّا ظاهرٌ، وإمّا مؤوّل»[5].

وضمن هذا الإطار الإشكالي يقع التضارب في المعاني، والتباين في الدّلالات للمفردة الواحدة، وللخطاب الواحد، وهو ما دفع المشتغلين بعلم الدّلالة وقضايا المعنى إلى البحث عن السبل الكفيلة بإزاحة الغموض، والوصول إلى المعاني الحقيقية للخطاب اللغويّ، فظهرت تبعاً لذلك العديد من النظريات ذات الصّلة، مثل النظرية الإشارية، والنّظرية التصوّرية، والنظرية السلوكية،

(1) الأخضري: شرح السلّم ص67.
(2) حبيب بوزوادة: علم الدّلالة، التأصيل والتفصيل ص84.
(3) علم الدّلالة ص145.
(4) السيوطي: الإتقان في علوم القرآن ص300.
(5) الشريف التلمساني: مفتاح الوصول ص47.

ونظريـة الحقول الدّلالية، والنظريـة التوليدية، وغيرها مـن النّظريـات، التي قدّمـت الكثـير للتحليـل اللغوي، وأمّـدت الدّارسين بالعديد مـن المنهاجيات التي سمحت بالاقـتراب العلمي من قضايا المعنـى، وحاولت أن تبحث في آليات تشكّل المعنى، وسبل الوصول إليه.

غـير أنّ النظريـة التـي أثبتـت كفاءتهـا في تفسـير الدّلالات وتوضيـح المعاني هي النظريـة السياقية. لأنّها جعلـت همّها هـو كشـف المعنـى، والتعرّف عليـه ضمن الاستعمالات اللغوية المختلفة. وهو ما سنحاول استعراضه لاحقاً في هذه الدّراسة.

## مفهوم السّياق:

جـاء في لسان العـرب: ساق الإبل وغيرهـا، يسوقها سوقـاً.. وقد انساقـت وتساوقت الإبل تساوقـاً: تتابعت، وسـاق إليهـا الصّـداق والمهر سياقـاً وأساقـه، وإن كان دراهـم أو دنانير، لأنّ أصل الصّـداق عند العرب الإبلُ، وهـي التي تُسـاق، فاستعمل ذلـك في الدّرهـم والدّينار وغيرهما..

ومعظـم المعاجـم العربيـة تحصر دلالـة السّياق في التّتابـع دون انقطاع، قال الجوهـريّ: «يقال ولدت فلانة ثلاثـة بنين على ساق واحدة، أي بعضهم على إثر بعض، ليست بينهم جارية..»

أمّا في الاصطـلاح فتتألّف كلمة سياق (Context) من السابقـة (Con) وتعني المشاركة، و(Text) وتعني النّصـ، وعليه فكلمـة (Context) هي (مـع النّص)، أو (مصاحبـات النّصـ)، وفي هـذا المصطلح اعتراف بوجـود حقيقتين، وهمـا النّص بوصفـه منظومة لغوية، ومصاحبـات للنصـ بوصفهـا العناصـر المحيطة بهذه المنظومة اللغويـة، قال ستيفان أولمان (S.Ullmann): «إنّ السيـاق علـى هـذا التفسـير ينبغـي أن يشمـل –لا الكلمات والجمل الحقيقيـة السّابقة واللاحقة فحسب– بـل والقطعة كلّها والكتاب كلّه، كما ينبغي أن يشمل بوجه مـن الوجوه كلّ ما يتّصل بالكلمة من ظروف وملابسات. والعناصـر اللغوية المتعلّقة بالمقام الذي تنطق فيه الكلمة لها هي الأخرى أهميتها البالغة في هذا الشأن»[1].

إنّ السيـاق هو «المحيط اللغوي الذي تقع فيه الوحدة اللغويـة، سواء أكانت كلمة أو جملة في إطار من العناصر اللغويـة أو غـير اللغويـة»[2]. فالسيـاق هـو نصٌّ آخـر مصاحـب للنّص الظاهـر للقرّاء، وهـو عنصر مهمّ في توجيه الـدّلالات، واكتشاف المعاني، التي تتميّز بالحركة والتفلّت والتغيّر المستمر.

وأيّ دعوة للاكتفاء بالدّلالة المعجمية وحدها، بمعزل عـن موقعها داخل الخطاب، أو عن ظـروف إنتاجها هي دعـوة غير علميـة، ومخالفـة لطبيعة الـكلام البشريّ. يقول ستيفان أولمان «إنّ الذين ينادون بهذه الآراء ينسون الفـرق الأساسي بـين الكلام واللغة، وهـذا الفرق يتمثّل في أنّ السّياقـات إنّمـا تكون في المواقـف الفعلية للكلام، وغنـيّ عن البيان حينئذ أنّ معـاني الكلمات المخزونة في أذهـان المتكلّمين والسّامعين لا تحظـى بالدّقة والتحديد إلاّ حـين تضمّهـا التراكيـب الحقيقـة المنطوقـة.. ولكن عـدم وضوح الفرق بين الكلام واللغـة قد عاق كثيراً من العلماء عن منح الكلمات المفردة نصيبها من الاستقلال الذي تستحقه»[3]. فلا مجال لاكتشاف المعاني الحقيقية للكلمات خارج دائرة الاستعمال.

## السّياق في التراث العربي:

لقـد انتبه الدّارسون العرب في وقت مبكّر إلى أهميّة السّياق في توجيه الدّلالات واكتشاف المعاني، فنجد الكثير مـن العلماء لا يُقْدِمُ على تفكيك مفهومٍ من المفاهيم قبل

(1) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ترجمة كمال بِشْر ص57.
(2) ردة الله بن ردة الطلحي: دلالة السياق، جامعة أم القرى، مكة المكرمة، 1424هـ، ط1 ص51.
(3) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ترجمة كمال بِشْر ص57.

أن يتناول بالتّحليل شروط إنتاجه، وظروف إنشائه. ويمكننا أن نلمس ذلك بوضوح في بيئتين رئيسيتين؛ بيئة علماء الأصول، وبيئة علماء اللغة.

## 1 - بيئة الأصوليين:

إنّ تعامل علماء أصول الفقه مع الخطاب الشّرعي، أكسبهم وعياً كبيراً بخطورة المعنى وأهميته، فهم يعتبرون أنفسهم يتحمّلون مسؤولية صياغة الأحكام وتبليغها للنّاس انطلاقاً من القرآن والسّنة وباقي مصادر التشريع، حتى أطلق عليهم ابن القيم لقب (الموقّعين عن ربّ العالمين) [1]، ولذلك تميّزت نظرتهم إلى الخطاب الشّرعي بالكثير من الدّقة والتحرّي، والنظر المتواصل والعميق في سياقاته المختلفة، واعتبروا ذلك شرطاً أساسياً لاستنباط الأحكام، يقول ابن القيم: «السّياق يرشد إلى تبيين المجمل، وتعيين المحتمل، والقطع بعدم احتمال غير المراد، وتخصيص العام، وتقييد المطلق، وتنوّع الدّلالة، وهذا من أعظم القرائن الدّالة على مراد المتكلّم، فمن أهمله غلط في نظره، وغالط في مناظرته فانظر إلى قوله تعالى ﴿ذُقْ إِنَّكَ أَنْتَ الْعَزِيزُ الْكَرِيمُ﴾ (الدّخان:214) [2] كيف نجد سياقه يدلّ على أنّه الذليل الحقير»[3].

فتفسير الخطاب الدّيني يستلزم من وجهة نظر الأصوليين استحضار كافة القرائن التي يمكنها الإسهام في توجيه المعنى، وذلك انطلاقاً من قاعدة أنّ الخطاب -قرآناً أو حديثاً- ظنيُّ الدّلالة غالباً، فنحن أمام نوعين من الخطاب؛ خطاب احتمالي، وخطاب غير احتمالي (نص) مثلما قال الغزالي: «إن كان نصاً لا يَحتمِل؛ كَفَى معرفةُ اللغةِ، وإن تطرق إليه الاحتمال؛ فلا يُعرف المرادُ منه حقيقةً إلا بانضمام قرينةٍ إلى اللفظ»[4]، وقد فصّل علماء الأصول في ذكر السّياقات التي تتحكّم في دلالات الخطاب تحت مصطلح (القرائن المرجّحة)، وهي عندهم «إمّا لفظية، وإمّا سياقية، وإمّا خارجية»[5].

### أوّلا- القرينة اللفظية:

وهي التي ترجّح المعنى المحتمل من داخل البنية اللغوية محلّ الإشكال، ويمثّل الأصوليون لذلك بلفظة (قرء) الواردة في قوله تعالى ﴿وَالْمُطَلَّقَاتُ يَتَرَبَّصْنَ بِأَنفُسِهِنَّ ثَلَاثَةَ قُرُوءٍ﴾ (البقرة: 228)، فهي لفظة تحتمل في اللغة معنى الحيض والطهر، لكّن اختلاف جنس العدد عن المعدود قرينةٌ لفظية ترجّح المعنى الثاني، يقول الشريف التّلمساني: «الأطهار مذكّرةٌ؛ فيجب ذكر التّاء في العدد المضاف إليها، فيقال: ثلاثة أطهار، والحيض مؤنّثة؛ فيجب حذف التاء من العدد المضاف إليها، فيقال: ثلاثُ حِيَض، ولمّا قال الله تعالى: ﴿ثَلَاثَةَ قُرُوَءٍ﴾ بالتّاء، علمنا أنّه أراد الأطهارَ»[6].

### ثانيًا- القرينة السّياقية:

تنقسم القرينة السّياقية إلى نصية وحالية، يريدون بالقرينة النّصية علاقة النص بالوحدات النّصية القريبة منه، حيث تخضع دلالة النّص للتوجيهات الدّلالية للمركّبات المجاورة لها[7]، مثاله قوله تعالى: ﴿وَامْرَأَةً مُّؤْمِنَةً إِن وَهَبَتْ نَفْسَهَا لِلنَّبِيِّ إِنْ أَرَادَ النَّبِيُّ أَن يَسْتَنكِحَهَا﴾ (الأحزاب:50)، يدلّ على جواز عقد النّكاح بلفظ الهبة، لكنه تعبير يحتمل أن يكون خاصًّا بالنبي ﷺ، كما يحتمل أن يكون عاما لأمّته، فجاء تمام الآية مرجّحا لخصوصية ذلك بالنبي ﷺ: ﴿خَالِصَةً

(1) وذلك في كتابه الأصولي الشّهير (إعلام الموقّعين عن ربّ العالمين).
(2) الخطاب في الآية موجّه لإبليس، وسياق الآية: ﴿إنّ شجرة الزّقوم طعام الأثيم كالمهل تغلي في البطون كغلي الحميم خذوه فاعتلوه إلى سواء الجحيم ثم صبوا فوق رأسه من عذاب الحميم ذق إنك أنت العزيز الكريم﴾ (الدخان: 214).
(3) ابن القيم: بدائع الفوائد (222/4).
(4) الغزالي: المستصفى من علم الأصول ص185
(5) الشريف التّلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ص56.
(6) المرجع نفسه ص56.
(7) د.عبد الكريم بكري: فصول في اللغة والأدب ص7.

لَكَ مِنْ دُونِ الْمُؤْمِنِينَ﴾ (الأحزاب:50).

أمّا القرينة الحالية فيراد بها المرجّحات المصاحبة للخطاب، لأنّ «أمر الدّلالة لا يحمله الخطاب كنسق لغويّ، وإنّما مردّه إلى الطبيعة الإنتاجية التي يحوّل عبرها القارئ خطاب النّص إلى خطاب ذي مقاصد دلالية»[1]، ومثاله: ﴿وَيْلٌ يَوْمَئِذٍ لِّلْمُكَذِّبِينَ انطَلِقُوا إِلَى مَا كُنتُم بِهِ تُكَذِّبُونَ انطَلِقُوا إِلَى ظِلٍّ ذِي ثَلَاثِ شُعَبٍ لَا ظَلِيلٍ وَلَا يُغْنِي مِنَ اللَّهَبِ﴾ (المرسلات:29--30-28-31)، فالمقصود من الظلّ في هذا السّياق هو لهب جهنّم، وجرى استعمال كلمة ظل على سبيل التهكّم، فالخطاب في النهاية وليد تفاعلات شخصية واجتماعية وأدبية معقّدة، ومن واجب القارئ أن يعتبر كلّ ذلك في الحسبان[2].

### ثالثًا- القرينة الخارجية:

هي أداة ترجيح معنى من المعاني غير المتضمّنة في الخطاب موضع الإشكال، ولكنها تستفاد من خطابات أخرى، وعرّفها الأصوليون بأنّها «موافقةُ أحدِ المعنيين لدليلٍ منفصلٍ، من نص، أو قياس، أو عمل[3].

مثال النص: تفسير العدّة في قوله تعالى: ﴿إِذَا طَلَّقْتُمُ النِّسَاءَ فَطَلِّقُوهُنَّ لِعِدَّتِهِنَّ وَأَحْصُوا الْعِدَّةَ﴾ (الطّلاق:1)، فهي تعني الطّهر والحيض، لكنّ الأحناف اعتبروا العِدَّةَ ثلاث حيضات بقرينة نصية خارجية، وهي قوله تعالى: ﴿وَاللَّائِي يَئِسْنَ مِنَ الْمَحِيضِ مِن نِّسَائِكُمْ إِنِ ارْتَبْتُمْ فَعِدَّتُهُنَّ ثَلَاثَةُ أَشْهُرٍ وَاللَّائِي لَمْ يَحِضْنَ﴾ (الطّلاق:4)، فجعل عدة المرأة التي لا تحيض ثلاثة أشهر، بدلا عن الحيض، ممّا دلّ على أن الحيض هو الأصل في حساب العدة وليس الطّهر، ففسّرت الآية السابقة.

مثال القياس: تفسير المالكية لمعنى العِدّة الوارد في الآية السابقة انطلاقا من القياس، فاعتبروا أنّ العِدّة لمّا كان مأمورًا بها كانت عبادة، وبالقياس على الصلاة والصيام والطّواف –وهي عبادات كلّها– لا يجوز التعبد بالحيض، ولذا وجب حمل المعنى على الطّهر.

مثال العمل: قوله ﷺ: «صَلُّوا كَمَا رَأَيْتُمُونِي أُصَلِّي»[4]، في بيان صفة الصلاة، وقوله ﷺ: «خُذُوا عَنِّي مَنَاسِكَكُمْ»[5]، في بيان صفة الحج، وهذه أحسن أنواع القرائن، لأنّ «البيان بالفعل أدلُّ على الصّفة، وأوقعُ في الفهم من الصفة بالقول، لِمَا في المشاهدة من المزيد عن الأخبار»[6].

فالأصوليون نظروا إلى الخطاب الشّرعي بوصفه بنية نصية متكاملة، لا يعتبرون الجملة هي الوحدة الأساسية المهيمنة فيه، ولكنهم يتحدّثون عن النّص بصورة أكثر حداثة، يرتبط أوله بآخره، ويفسّر بعضه بعضا، إنّهم يقتربون كثيرا مما يسمّيه المعاصرون علم النص (Science du texte)، ومن ثَمَّ فإنّ فهم الخطاب يكون محتاجا إلى إدراك مكوّناته كافة، وليس بالاقتصار على نظرة مجتزأة تكتفي بمحلِّ الشاهد بعيدا عن السياقات الداخلية والخارجية. لذلك يغدو من الضروري الاستعانة على فهم النص بكافة المكوّنات التي تشكّل بيئة الخطاب، ومنها تفسير النصّ بالنص نفسه، مثلما نلمس ذلك عند المفسرين الذين جعلوا تفسير القرآن بالقرآن أصل التفاسير[7].

### 2 - بيئة اللغويين:

لقد شكّل السّياق حجر الزّاوية في الدّراسات اللغوية العربية، فحظي هذا المكّون بأهمية بالغة لدى المعجميين

(1) د.عبد الجليل منقور: التأويل ومقصدية الخطاب، مجلة قراءات، جامعة معسكر العدد الأول ص49.
(2) د.عبد الكريم بكري: فصول في اللغة والأدب ص8-9.
(3) الشريف التلمساني: مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول ص57.

(4) أخرجه البخاري ومسلم
(5) أخرجه مسلم
(6) ابن قدامة: روضة الناظر وجُنة المُناظر ص185.
(7) فيفسرون –مثلا– الإنعام قوله تعالى:﴿صِرَاطَ الَّذِينَ أَنْعَمْتَ عَلَيْهِمْ﴾(الفاتحة: 7)، بقوله: ﴿أُولَئِكَ الَّذِينَ أَنْعَمَ اللَّهُ عَلَيْهِم مِّنَ النَّبِيِّينَ مِن ذُرِّيَّةِ آدَمَ وَمِمَّنْ حَمَلْنَا مَعَ نُوحٍ وَمِن ذُرِّيَّةِ إِبْرَاهِيمَ وَإِسْرَائِيلَ وَمِمَّنْ هَدَيْنَا وَاجْتَبَيْنَا﴾ (مريم: 58).

والنحـاة والبلاغيـين وغيرهـم، الذيـن كانـوا مدركين لأهميـة ظروف إنشـاء الخطاب في فهـم الخطاب، وفي تشكيلـه أيضـاً. وقـد ظلّ البلاغيـون يـردّدون عبارتهم الشهيرة (لكلّ مقام مقـال)، إدراكاً منهم بدور العوامل غير اللغوية في بلورة خطاب لغوي قادر على الوصول إلى المتلقين باليسر المطلوب والدّقة المرغوبة، حتى اختصروا مفهوم البلاغة في كلمة (المقام)، وقال قائلهم «البلاغة هي مطابقة الكلام الفصيح لما يقتضيه الحال»[1].

ووعياً مـن الجاحظ شيـخ البلاغة العربيـة بأهمية التّناغم بـين الخطاب اللغـوي وسياقـه الاجتماعي دعا في عبارتـه الشّهـيرة إلى تشكيـل خطـاب لغـويّ يراعي أحـوال المخاطبـين وقدراتهـم ومنزلتهـم الاجتماعيـة، فقـال: «جمـاع البلاغة التماس حسن الموقـع، والمعرفة بساعـات القول، وأن لا يُكلَّـم سيّد الأمّة بكلام الأمّة، ولا الملـوك بكلام السّوقـة، ومدار الأمر علـى إفهام كلّ قومٍ بمقدار طاقتهم، والحمل عليهم على أقدار منازلهم»[2]، فالبلاغـة هي القدرة على تحرير المعنى من عقال البنية الشكلية للغة، بصياغة خطاب تواصليّ، إفهامي، وهذا ما لا يمكن تحقيقه بعيداً عن مراعاة سياق التخاطب، الذي يحصره الجاحظ في أحوال المخاطبين ومقاماتهم.

## نظرية السّياق:

في خضـم المحـاولات العلمية المتلاحقـة لاستكشاف المعنـى ظهـرت النظريـة السياقيـة (Contextuel Theory) بوصفهـا إحـدى المحـاولات الجـادّة للبحث في معنى المعنى، وآليـات تحوّله، وكان زعيم هذا الاتجاه العـالم البريطاني فـيرث (Firth) الـذي اعتبر المعنى «مجموعـة مركّبة من العلائـق السّياقية، وعلى الدّراسة الفونولوجيـة، والتركيبيـة، والمعجميـة، والدّلاليـة أن تعالج مكوّنات هذه المجموعـة في إطار سياقها المناسب، فالدّراسـة الدّلالية حسـب مفهومه ينبغي لهـا أن تربط الملفوظـات اللسانيـة بسياقهـا الموقفـي الـذي تنتج فيه بالفعـل»[3]، فالمفـردة الواحدة قـد تحمل عـدداً هائلاً مـن المدلولات بحسـب السّياقات التي تنتمـي إليها هذه المفـردة، وعليه يظلّ السّياق هو الوحيـد الكفيل بتحديد المدلـول المراد، يقـول أحمد حسـاني: «التفسير الدّلالي في ظـل النّظريـة السّياقيـة ينبنـي مبدئياً علـى حصر السّياقـات المختلفـة التـي يظهـر فيهـا عـادة العنصر اللساني بوصفه مدخلاً معجمياً غير ثابت، يتغير بتغير المواقف، والسّياقات المختلفة التي يرد فيها، سواء أكانت هذه السّياقات لسانية أم غير لسانية»[4].

لقـد صرّح فيرث بأنّ المعنـى لا ينكشف إلاّ من خلال تسييـق الوحدة اللغويـة[5]، لأنّ السّياق وحـده هو الذي يحـرّر المفردات مـن أغلالهـا المعجمية، ويضيـف إليها مفاهيـم جديدة تسمح بتحديد دقيـقٍ لدلالاتها. وضمن هذا الإطار صنّف رواد هذه النّظرية السياقات والمواقف التي تشارك في إنتاج المعنى كما يأتي:

### 1 - السياق اللغوي (Linguistic Context):

يعـرّف السيـاق اللغـويّ بأنّه كلّ مـا يتعلّـق بالإطار الدّاخلـيّ للغـة، ومـا يحتويـه مـن قرائـن تساعـد على كشـف دلالـة الوحـدة اللغويـة الوظيفية، ضمـن البناء العام للنّصـ، وهذا الأمر يتطلّب العـودة إلى نظم اللغة الصوتية، والصّرفية، والتركيبية، والمعجميّة، والدّلاليّة، للوقوف على ذات الكلمـة وماهيتها[6]، نحو قوله تعالى: ﴿أَتَى أَمْـرُ اللهِ فلا تَسْتَعْجِلُوه﴾ (النّمـل:01)، فالدّلالة الزمنيـة للفعل ﴿أَتَـى﴾ تحيل على المـاضـي، أما دلالته داخل سياق الآية فتنفتح على الاستقبال.

(1) أحمد الهاشمي:جواهر البلاغة ص27.
(2) الجاحظ: البيان والتبيين (81/1).
(3) أحمد حساني: مباحث في اللسانيات ص154.
(4) المرجع نفسه ص154.
(5) أحمد مختار عمر: علم الدّلالة ص68.
(6) عبد القادر عبد الجليل: علم اللسانيات الحديثة ص542.

ويمثّل أحمد مختار عمر للسّياق اللغويّ بلفظة (يد) التي تتغيّر معانيها تبعاً للاستعمالات التي تَرِدُ فيها:

أ-هم (يدٌ) على من سواهم: إذا كان أمرهم واحداً.

ب-(يَدُ) الفأس: مقبضها

ج-(يَدُ) الدّهر: مدّ زمانه.

د-(يَدُ) الرّيح: سلطانها.

هـ-(يَدُ) الطّائر: جناحه.

و-بايعته (يَدًا) بيد: أي نقداً.

ز-ثوبٌ قصير (اليَدِ): إذا كان يقصر أن يلتحف به.

ح-فلانٌ طويلُ (اليَدِ): إذا كان سمحاً.

ط-سقط في (يَدِهِ): ندم.

ي-حتى يعطوا الجزية عن (يَدٍ): عن ذلٍّ واعتراف للمسلمين بعلوّ أيديهم.

ك-إنّ بين (يَدَيّ) السّاعة أهوالاً: أي قدّامها.

ل-(يَدُ) الرّجل: جماعة أنصاره وقومه[1].

فالملاحظ أنّ المدخل المعجمي المتمثّل في مفردة (يد) تختلف دلالياً تبعاً لموضع تواجدها في السياق اللغويّ، وهذا الأمر ينطبق على معظم المداخل المعجميّة التي تشكّل الرصيد المعجميّ العربيّ، ولهذا نقول دائماً: أعطني النّص الذي وجدت فيه الكلمة، أُعطِك معناها.

## 2 - السياق العاطفي (Emotional Context):

هو المحدّد لدرجة القوة والضعف في الانفعال، ممّا يقتضي تأكيداً أو مبالغةً أو اعتدالاً، فقد تشترك وحدتان لغويتان في أصل المعنى المعجميّ، لكنّ السّياق العاطفيّ يؤثّر على أصلهما الدّلالي، ويضيف إليه درجة انفعالية معيّنة، مثل كلمتي (يكره) و(يبغض)، فإنّ في البغضاء قساوةً وقوّةً عاطفيّة لا نجدها في الكراهيّة، ومثله في اللغة الإنجليزية كلمتا (love) و(like) فإنّ كلاًّ منهما تحمل قيماً انفعالية تختلف عن الأخرى، رغم اشتراكهما في أصل المعنى وهو (الحب).

## 3 - سياق الموقف (Situational Context):

ونعني به الإطار الخارجيّ الذي يحيط بالإنتاج الفعليّ للكلام في المجتمع اللغوي[2]، فظروف إنتاج الكلام تسهم بشكل مباشر في تحديد المعنى المقصود، ويمكننا التمثيل لذلك بكلمة (عملية) التي يمكن تفسيرها بحسب الموقف الاجتماعي الذي تطلق فيه، فتعني العملية في سياق موقف تعليمي إجراء عملية حسابية من جمع أو طرح أو ضرب، وفي السّياق الطبّي يقصد بها عملية جراحية لمريض معيّن، أمّا القيام بعملية في سياق الموقف العسكريّ فيعني تنفيذ خطّة عسكريّة ما.

## 4 - السّياق الثقافي (Cultural Context):

ويمثّل القيم الثقافية والاجتماعية التي تحيط بالكلمة، التي تأخذ ضمنه دلالاتها المحدّدة لها، حيث يختلف المفهوم الذهني للمفردات باختلاف المرجعية الثقافية التي ينتمي إليها المتكلّم، فيُطلَقُ على زوجة الرّجل مثلا حَرَمُه وعقيلتُهُ وقرينتُهُ وامرأتُهُ.. وخلف كلّ اسمٍ من هذه الأسماء مرجعيّة ثقافية تدلّ على مكانة مستخدم اللغة، ومثال ذلك أيضاً كلمة (جذر) التي تعني في الرّياضيات معنى غير الذي تعنيه في مجال الزراعة، وتعني في مجال الدّراسات اللغوية معنى ثالث يختلف عن المعنيين السّابقين، واحترام هذه المحدّدات ضروريّ في عمليّة التواصل.

وأيّد جون لاينز (J.Lyons) جهود فيرث فاعتبر السّياق مسؤولا عن تحديد معاني الوحدات الكلامية، قائلاً «معنى الوحدة الكلامية يتجاوز ما يُقال»[3]، متحدّثاً في دراسته عن ناحيتين أساسيتين تشكّلان السّياق، وهما

(1) أحمد مختار عمر: علم الدّلالة ص70.

(2) أحمد حساني: مباحث في اللسانيات ص158.

(3) جون لاينز: اللغة والمعنى والسياق، ترجمة عباس صادق الوهاب ص222.

«النّاحية الكلامية والنّاحية اللاكلاميّة»[1]، وضرب لذلك مثـالاً بجملة «اجلس» التي قد تـدلّ على الأمر (الإلزام) أو مجـرّد الإذن بالجلوس، تبعاً لمكانـة الشخص وأهليته لإصـدار الأوامر، «حيـث يمكن التنبّـؤ في أغلب الأحيان عن ظهور وحدة كلامية ذات قوّة لا كلامية معيّنة، وذلك عـن طريق الموقف المحدّد اجتماعيـاً الذي تعتبر الوحدة الكلامية جزءًا منه»[2].

ويعتقد لاينز أنّ الغموض يضفي حيوية على النصوص الأدبيـة، لأنّ التّردّد في تفسـير الوحدات الكلامية يُحمِّل القـارئ مسؤولية عظمى، «حيث يتوقّـع أن يَحْمِلَ القارئ في ذهنـه تفسيريـن أو أكـثر في وقت واحد، وهـو إمّا أن يـتردّد بين هذه التّفسـيرات أو يجمع بينهـا بطريقة ما؛ ليكـوِّن تفسيراً مركّبـاً غنيًّـا»[3]، فعندما نقـرأ لشعراء التصـوّف أمثال رابعـة العدويّـة أو العفيـف التلمساني قصائـد في الحـب والعشـق والسُّكْر وغيرهـا من معاني العربـدة سنجد أنفسنا مجبرين بقـوة السّياق إلى تأويل تلـك المعاني، والعدول عنها إلى معـانٍ أخرى كحبّ الله، والقـرب منه، والفناء فيه، وغيرهـا من القيم التي تقوم عليها التّجربة الصّوفية.

ويعتبر فصل اللغات عن سياقاتها الثقافية من أعظم العوائق التي تواجه المتعلّمين، خصوصاً في مجال اللغات الأجنبيّـة، فلـكلّ لغـة خصوصية ثقافية تمنـع الترجمة الحرفيّـة، وتدعو إلى التّرجمـة السّياقيـة، فَقَوْلُنَا فلانٌ (يشـرب) الدّخـان مثلا لا يمكـن أن نترجمهـا إلى لغة أخرى بشكلٍ حرفيٍّ مـا لم نحترم السّياق، وكذلك الشّأن بالنّسبـة لكلمة (الفـول السوداني) وهـي (Peanuts) بالإنجليزيـة، و(cacahuètes) بالفرنسيـة، لكـنّ ترجمتها الحرفية إلى أي لغة أجنبية أخرى سيفسد دلالة الكلمة، وكذلك الكلمة الفرنسية (Pomme de terre) وهـي (البطاطا)، فإن لم يتم وضع السّياق الثقافي الذي نشـأت فيه اللفظة في الحسبان وجدنا أنفسنا أمام دلالة مشوّهـة مستوحـاة من الترجمـة الحرفيـة للكلمة وهي (تفّاح الأرض)[4].

إنّ تعامـل النظريّة السّياقية مع المعنى بوصفه شبكة علائقية مرتبطة بجملة من الظـروف والسّياقات مكّننا مـن الوصـول إلى مقاربة علمية لسانيـة لقضايا المعنى، فقـد استطاع البحـث السّياقي أن يحـدّد بدقّة الحمولة الدّلالية للكلمات داخـل شبكة التخاطب بتفعيل منظومة السّياقات المحيطة بها، يقـول أولمان: «إنّ نظريّة السّياق –إذا طُبِّقت بحكمة– تمثل حجر الأساس في علم المعنى، وقد قادت بالفعل إلى الحصول على مجموعة من النتائج الباهـرة في هـذا الشـأن. إنّها مثلا قـد أحدثت ثورة في طرق التّحليل الأدبي، ومكّنت الدّراسة التاريخية للمعنى من الاستناد إلى أسس حديثة أكثر ثباتاً، كما أنّها قدّمت لنا وسائل فنيّة حديثة لتحديد معانيّ الكلمات»[5].

لقـد أعـادت النّظريّـة السّياقيـة الاعتبـار للدّلالـة ضمـن إطارهـا الطبيعي، وهو ظـروف التّكلّم وشروط إنتاج الكلام، فأعادت الـرّوح لمفاهيم غيّبتها النظريات السّابقـة، ولم تحـظ إلاّ بفرصـة هامشيـة في التّحليـل الدلالي في النظريات الأخرى، فجرى الحديث عن المقام، والسّياق، والموقف، وطريقة الحديث، وزمن التكلّم، وهي مفاهيـم إجرائية تلقفتّها التداوليـة فيما بعد، وتأسست على ضوئها نظرية متكاملـة استفادت من إرث النظريّة السياقية، والبلاغة القديمة.

## وظيفة السّياق في الفكر التداولي الحديث:

تمثّل التداولية (Pragmatics) مرحلة متطوّرة من مراحـل الدّرس اللغـويّ، فـإذا كان اللسانيات تقف على أعتاب البنيـة اللغوية لا تتجاوزها، فـإنّ مهمة التداوليّة

(1) المرجع نفسه ص222.
(2) المرجع نفسه ص227.
(3) المرجع نفسه ص224.
(4) حبيب بوزوادة: علم الدّلالة التأصيل والتفصيل ص115.
(5) ستيفن أولمان: دور الكلمة في اللغة ص61.

أن تتجاوز ذلك إلى تحليل الأبعاد الحقيقية لتلك البنية اللغوية المغلقة، ببحث الأبعاد النفسية والاجتماعية والثقافية لكلّ من المتكلّم والمخاطَب والجماعة اللغوية التي يجريّ ضمنها التواصل، يقول منذر عيّاشي: «وأمّا اللسانيات التداولية فترى أنّ الدّلالة نسق من المعاني، يحتكم إلى سياق التعبير ويرتبط به»[1]، إنّها نظرية تعنى بدراسة اللغة في علاقتها بمستعمليها، حيث تتحوّل الكلمات إلى أفعال، والمعاني إلى وظائف واستخدامات. فالتداوليّ لا يفهم من عبارة (هل لديك قلم؟) معناها الحرفيّ، ولكنّه يفسّرها تفسيراً وظيفياً إنجازياً، مبنياً على تفسير سياقيّ، مستوحى من مقام التلفّظ، وظروفه الزمكانية، وعليه فالمعنى التداولي هنا هو طلب استعارة القلم، «إنّ مدلول القصد جزء من دلالة النّص، وليس جزءا من دلالة الكلمة، ولذا فإنّ أيّ نصٍّ يخلو من القصد لا يرقى إلى مرتبة الخطاب، وبالتّالي لا يقوى أن يحافظ على انسجامه الدّاخليّ، أو على منطقه الذاتيّ، وسيفقد في النتيجة توجّهه الإيصالي»[2].

ويعتبر المكوّن التداوليّ أحد المكوّنات الرئيسة للإحاطة بأيّة لغة كما نصّ على ذلك الفيلسوف الأمريكي شارل موريس (C.Morris) الذي ميّز بين مجالات ثلاثة في دراسة أي لغة[3]:

**المجال التركيبي:** الذي يعنى بعلاقة العلامات اللسانية فيما بينها.

**المجال الدلالي:** ويبحث في علاقة المعاني بالأشياء.

**المجال التّداولي:** ويهتم بالعلاقات القائمة بين العلامات اللسانية ومستعمليها واستعمالها وآثارها، في إطار الشبكة السّياقية بمفهومها الشامل، (السياق الثقافي والنفسي والاجتماعي..).

فالمعنى من وجهة نظرٍ تداوليةٍ يتجاوز المتصوّر الذهني الذي تقرّره المعاجم اللغوية، إنّه الجانب المفهومي الذي تتواضع عليه الجماعة اللغوية، في إطار اتفاقها الضّمني بين المتكلّمين والمخاطبين، على أساسٍ من العقد اللغوي، بقصد تحقيق التّفاهم بين عناصر التخاطب. ولهذا يصبح من الضروريّ مراعاة الشروط الواجب توفّرها في عمليّة التّخاطب، وهي التي أطلق عليها دومينيك مانقونو (D.Maingueneau) مقوّمات السّياق، وذكر منها المشاركين (كتّاب، باعة، تلاميذ..)، والمكان، والزمان، والغاية، ونوع الخطاب، والقناة، واللهجة المستعملة، والقواعد التي تحكم التّداول على الكلام في صلب جماعة معيّنة[4]، فقولنا لشخصٍ ماً (تفضّل مع السّلامة) تعني الترحيب والمجاملة، كما قد تعني الطّرد والإهانة.. ولا يمكن تحديد دلالتها بوضوح تامٍ إلا بوضع الوحدة اللغوية ضمن سياقها التداوليّ الخاصّ بها.

ومن الأمثلة التي توضّح تأثير مقوّمات السّياق التي ذكرها مانقونو قول شاعر الثورة الجزائرية مفدي زكريا (1912م- 1976م) لجنود الاحتلال الفرنسي:

زوروا هناك –مكّرمين- خطوطها

وتسلّقوا متفسّحين جبالها

وتوزّعوا بسهولها وشعابها

وتفيّؤوا متنعّمين ظلالها

فدعوة الشّاعر الثّائر لجنود الاحتلال بالسّياحة في أرض الجزائر، والتمتّع بجمال طبيعتها، لا يمكن أن يكون مقصوداً، لوجود موانع سياقية ترفض هذه المعاني المرحّبة، فالعداوة المستحكمة بين الجزائريين والمحتلّ الفرنسي تلغي كلّ الدّلالات الإيجابية التي تحملها هذه الدّعوة وتحيّلها إلى معانٍ مفعمة بالاحتقان والتوتّر،

(1) منذر عياشي: اللسانيات والدّلالة ص88.
(2) المرجع نفسه ص80.
(3) دومينيك مانقونو: المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ترجمة د.محمد يحياتن ص92

(4) المرجع نفسه ص25-26.

فيغدو التفيؤ احتراقـاً، والتمتّع معاناة، والظّلال سعيراً، والتكريم مقاومة[1].

فالسّياق يمثّل ركناً ركيناً في تحديد الغايات التداولية مـن عمليـة التخاطـب، «فالفعـل الكلاميّ لا يعـبّر عنه بواسطـة الجملة فقط، ولكـن يعبّر عنـه في سياق معيّن وفـق المعادلـة التاليـة: قول+سياق=رسالـة»[2]، وعليه يعتبر الإلمام بقواعد اللغـة وحدها غير كافٍ لاستكشافِ المعنى، والتوصّـلِ إلى غاياتِه التواصليّة. إنّنا بحاجة إلى معرفة أخرى تعضد المعرفة اللغوية، معرفة تقدّم الفائدة المرجوّة لتحليل شروط التّخاطب، وسياقاته المختلفة.

وقـد أدّى الفرز بين الجملة والكلام إلى فرزٍ آخر على مستوى آليات البحث والقراءة؛ فالتّداولية تتعامل مع معنى الكلام، بينما يتعامل علم الدلالة مع معنى الجملة[3]. فعلى سبيل المثـال؛ عندما يقول المسؤول للموظّف الذي جاء إلى عملـه متأخراً (الحمد لله على السلامـة)، فإنّه لا يقصد أبـداً تهنئته أو مجاملته كما توحي بذلك الجملة في دلالتها الأساسية، ولكنه يريد التوبيخ والتقريع كما يشير إلى ذلك سياق الحال، وهنا تنتقل جملة (الحمد لله على السلامة) من كونها قولاً إلى كونها رسالة بتدخّل من السّياق.

والنّظريّة التداوليّة تنظر إلى اللغة من جهة الوظيفة لا من جهة الماهيّة، إنّها تعتبر اللغـة نظاماً تواصليّا غايته الأساسية هي إحداث تحوّلٍ ما لدى المخاطبين، بغضّ النظر عمّا إذا كان التحـوّل علـى مستوى الفعـل أو على مستـوى القناعة. وهو ما ألحّ عليه جـورج مولينيه (G.Molinié)، عندما ربط المعنى بتأثيرات الأفعال الكلاميـة، ورأى بأنّ دلالاتها إمّا تحقيقية أو تأثيرية، يقول «يكون تحقيقياً كلّ إنتاج كلاميّ يهدف إلى إنشاء موقف اجتماعيّ، ويكون تأثيريًّا كلّ إنتاج كلاميّ يحقّق فعليًّا - وبعمليّة إنتاج الكلام ذاته- تغييراً في الواقع غير اللغويّ»[4].

(1) عبد الكريم بكريّ: فصول في اللغة والأدب ص8-9.
(2) عبد السلام عشير: عندما نتواصل نغيّر ص101.
(3) صلاح الدين حسنين: الدلالة والنحو ص192.
(4) جورج مولينيه: الأسلوبيّة ترجمة بسام بركة ص156.

## الخاتمة :

تؤكّد هـذه الدّراسة على أهميّـة المعنى، بوصفه روح اللغـة، فهو الحقيقة الثاوية في كلّ نظام لغويّ، إنّه الجزء الأكثر حساسية في إستراتيجية التواصل البشريّ، ولهذا السبـب يعـدّ إدراك المعـاني، وتفسيرهـا، تحديّـاً لغوياً وسيميولوجيـاً، يتطلّب الاستفادة من كلّ أدوات التحليل، وآليات التأويل.

إنّنا لا نستطيع أن نمارس الانتقائية المنهاجية في سبيل البحـث عن المعنى، فنحن مطالبون بتوظيف كلّ إمكاناتنا القرائيـة للوصـول إليه، لا نفـرّق بين المعنى الـذي أراده المتكلّـم حينما تلفّظ به أول مرة، وبين المعنى الممكن الذي تـبرّره الاستراتيجيـات القرائية الحديثـة. ولهذا السبب تغـدو كلّ الوسائل التي تقـرّب القارئ من المعنى مشروعةً وصالحـة، لا يهـمّ إذا كانـت تستفيـد من اللسانيـات، أو السيميائيات، أو التداوليات أو غيرها من المناهج، لا فرق بينهـا إلاّ بالقدر الذي يجعلنا قريبين من المعنى، بناءً على القرائن والسّياقات التي تعضد هذا الموقف أو ذاك.

وبالحديـث عـن السّيـاق؛ فإنّنـا نكـون قـد فتحنـا نافـذة قادرة علـى الإطلالة على المعنـى عن قرب، ذلك أنّ السّيـاق مثلمـا تؤكّـده النظريـات اللسانيـة القديمة والحديثة على حدٍّ سواء هو الطريق إلى المعنى، والسبيل السّهـل الـذي يسمـح بالتعـرّف علـى البنيـة المفهومية للخطاب ضمن دائرة الاستعمـال، التي تعدّ أقوى أدوات التّفسير والتأويل.

ولهـذا السبب نعتقد أنّ السياق هـو مفتاح اللغة، إنّه سلطـة لغويـة أحياناً، وسلطـة فوق لغويـة أحياناً كثيرة، وذلـك لحضـوره الدّائم علـى مستوى الخطـاب، وعلى مستـوى ظـروف التخاطب أيضـاً، وهو مـا يفرض على القـارئ ضرورة العـودة إليه، كقوة قـادرة بكفاءة عالية علـى تفسير أي نظام لغويّ، مهمـا كانت طبيعته؛ دينية، أو تاريخية، أو أدبية، أو غيرها.

إنّ السياق يمنحنا المؤشرات التي تسمح بتوجيه القراءة، وضبط المفاهيم، ومن ثَمَّ يمنحنا الوسائل العلمية الكفيلة بالوصول إلى قراءة سليمة وممنهجة وأقرب إلى الموضوعية، ولهذا السّبب ظلَّ السياقُ باعتباره آليةَ قراءة وتحليلٍ حاضراً في كلّ المنهاجيات التي بحثت في قضايا الدّلالة، فهو ركنٌ ركين في الموروث العربي، عند البلاغيين، والأصوليين، والمفسرين، والمعجميين، وغيرهم، كما احتلّ في اللسانيات الغربية موقعاً مهمًّا، خصوصاً في نظرية (فيرث) السياقية، أمّا بالنسبة للنظرية التداولية، فإنّ السّياق اتّخذ فيها موقعاً مهمًّا بسبب طبيعة النظريّة نفسها، التي تتحدّد مهمّتها في دراسة اللغة ضمن بيئة التّخاطب، هذه البيئة التي تتحكّم في طبيعة الخطاب من حيث تشكيله ووظيفته.

## قائمة المصادر والمراجع :


- الأخضري (عبد الرّحمن)، شرح السلّم، تحقيق عمر فاروق الطّباع، مكتبة المعارف، بيروت، ط1، 1430هـ- 2009م.
- أولمان (ستيفن): دور الكلمة في اللغة، ترجمة كمال بِشْر، مكتبة الشباب، القاهرة، دت.
- بكري (عبد الكريم)، فصول في اللغة والأدب، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، دت.
- بوزوادة (حبيب)، علم الدّلالة، التأصيل والتفصيل، دار الرشاد، الجزائر، 2008.
- التّلمساني (الشريف)، مفتاح الوصول إلى بناء الفروع على الأصول، مؤسسة الرّسالة ناشرون، بيروت، ط1، 1429هـ- 2008م.
- حساني (أحمد): مباحث في اللسانيات، ديوان المطبوعات الجامعيّة، الجزائر، 1999م.
- حسنين (صلاح الدين)، الدلالة والنحو، مكتبة الآداب، القاهرة، ط1، دت.
- السّيوطي (جلال الدّين): الإتقان في علوم القرآن، مكتبة مصر، دت.
- عبد الجليل (عبد القادر)، علم اللسانيات الحديثة، دار صفاء، عمّان، الأردن، ط1، 1422هـ- 2002م.
- عشير (عبد السلام) عندما نتواصل نغيّر مقاربة تداوليّة معرفيّة لآليات التواصل والحجاج، إفريقيا الشرق، المغرب، ط2، 2012م.
- عمر (أحمد مختار)، علم الدّلالة، عالم الكتب، القاهرة، ط5، 1998م.
- عياشي (منذر)، اللسانيات والدّلالة، مركز الإنماء الحضاريّ، سورية، ط2، 2007م.
- ابن قدامة: روضة الناظر وجُنة المُناظر، الدّار السلفيّة، الجزائر، ط1، 1991م.
- ابن القيم (شمس الدّين) بدائع الفوائد، تحقيق أحمد عبد السلام، دار الكتب العلمية، بيروت، 1994م.
- لاينز (جون)، اللغة والمعنى والسّياق، ترجمة عباس صادق الوهاب، دار الشؤون الثقافية العامة، بغداد، 1987م.
- مانقونو (دومينيك): المصطلحات المفاتيح لتحليل الخطاب ترجمة د.محمد يحياتن، منشورات الاختلاف، الجزائر، ط1، 2005م.
- مفتاح (محمد)، المفاهيم معالم، المركز الثقافي العربي، بيروت/ الدار البيضاء، ط1، 1999م.
- منقور (عبد الجليل)، علم الدلالة أصوله ومباحثه في التراث العربي، ديوان المطبوعات الجامعية، الجزائر، 2010م.
- منقور (عبد الجليل)، التأويل ومقصدية الخطاب، مجلة قراءات، جامعة معسكر العدد الأول، 2008م.
- مولينيه (جورج)، الأسلوبية، ترجمة بسام بركة، المؤسسة الجامعيّة للدّراسات والنشر والتوزيع، بيروت، ط2، 1427هـ- 2006م.
- الهاشمي (أحمد)، جواهر البلاغة، دار ابن الجوزي، القاهرة، 1431هـ- 2010م.